أجمل الحب

قال لي ونحن نسير في نزهتنا الصباحية:

-أجمل الحب ذاك الذي يتفيأ برضى الله.. أتلوميننني لأنني أزف له البراءة والجمال وأجنبه عثرات الشباب؟

كنت في الليلة الماضية قد أفقت فجأة من نومي، وخيل الي أنني أسمع من الـداخل صوتا زاجرا يشبه صوته، فأصخيت السمع ونظرت في ساعتي، لا يمكن أن يكون أخّره حتى تلك الساعة وقد قرب الفجر! فلا بد أن يكون الصوت آتيا من عند الجيران، ولكـن الصوت عاد غاضبا ناهيا عاتبا، ولم أتبين الكلمات.. فنهضت مسرعة من فراشـي كـي أنبهه الى الوقت، وشاهدت وجه نضال محتقنا وفي وضعية المتأهب للقيام عن الكرسي.. رده عن غايته أمره له بالجلوس فجمد في مكانه.. كنت أفهم العذاب الذي يعانيه وأشـفق عليه، ولكنني أشعر بحاجته الى الكبح قليلا في مراهقته، هذا المهر الجامح.. الحب يملي على والده بعض القسوة، انه نوع من الدفاع عنه من الأذى الذي يحيط به من مجتمعـه وشلة رفاقه، ومن الميل للهوى، والملل من الدراسة.. دفاع شرس كالقطة تحمي صغارها من الأخطار التي تتهددهم.. كم عانيت في تدريس نضال! تمرد على ما ينفعـه، وشـد وجذب الى واجباته.. كانت المفارقة أن الخطر عليه كامن فيه، فهو بالتـالي موضـوع الحب والعقاب في آن واحد..

فهم عفيف ما أريد دون أن أقول شيئا، قال له "انهض واذهب" ولما حاول الخـروج دون أن يودعه، استوقفه وطلب اليه أن يتقدم منه وقبله وأردف "حتى تفهم بـأنني أحبـك وبأن قلبي يدمي من أجلك".. وخيل الي أنه على وشك أن تدمع عيناه، هذا الرجل الصلب القاسي اللهجة الرحيم القلب.. وأحسست بموجة تفيض في أعماقي وتخنق صدري في ذلك المكان الحساس من أسفل القصبة الهوائية وتفور حتى عيني فتغرورقان بالدمع.. عـدت الى فراشي فالصبح تبلّج ولم أسمع إغلاق الباب، فنهضت مرة أخرى وكان ما حزرته.. شاهدت نضال واقفا عند الباب يمسح دمعه وعيناه مضرجتان، فطلبـت منـه أن يغـسل وجهه ويستريح قليلا حتى لا يفوته الوقت.. جئته بكوب حليب حتـى لا يـذهب خـاوي المعدة الى مدرسته.. وذكرت موضوعه الذي استحق عليه تقدير أستاذه.. انه فتى لامـع،

فلماذا يضيع مستقبله في مرحلة يقرر فيها مصيره حسب علامات نجاحه؟ انهـا تجربـة حقيقية يعانيها بين طموحه ونوازعه التي لا ترحم في تلك السن الهوجاء التـي تعـصف فيها الغرائز.. قلت لنضال أهدئه قبل ذهابه الى المدرسة:

-ليس للإنسان سلاح من المعرفة الاّ ما يحصله في هذه الفترة بالذات، لأنه العمـر الذي لا يكون فيه مشغولا بلقمة العيش وتحصيل المال وهي التي ستخدمه طوال العمـر، انتظر حتى تجتاز البكالوريا فهي تقرر مصيرك، وفي العطلة تجـد الفـراغ لممارسـة هواياتك!

قلت لعفيف وأنا أسير:

-معك حق في كبح جماحه.. انني لاألومك، فالحياة هي هذا النـضال الـدائم بـين الدوافع والدواعي، بين التسلق والهبوط، وأي تهاون في كبح المثبطات قـد يـؤدي الـى الفشل الذريع.. ولكنني أتساءل أحيانا أترانا منصفين حين نقرن المعرفة التـي عليـه أن يحصلها بحوافزه الطبيعية؟ برغبته في أن يكون في شلة يتعرف فيها الى الجنس الآخر؟ أترانا نقدر حاجته الى نشاطات أخرى تلهب قلبه بالفرح والحماس؟ هذا مـا يحـس أنـه ينقصه وينتقدنا عليه ويتمرد علينا أحيانا فهي ليست عبثا في تصوره..

-انه يعيش مجتمعا انفلت من التقاليد التي كانت تحمينا في سنه، واستـشرى فيـه الفساد، ولسنا من الوصوليين الذين يحابون وتفتح لهم ولإبنائهم الأبواب على مصراعيها ولو كانوا جهلة وحتي أميين.. الشريف ضعيف في هذا المجتمع، أظافره قصيرة، لا يقدر أن يحصل لقمته.. وليس لأولادنا من ثروة الاّ علمهم..

عادت سينا موريا مرة أخرى الى سوريا، وكانت تنزل في فندق الشيراتون وتقابل القادة الفلسطينيين وغيرهم.. تلفنت الي ودعتني وعفيف لزيارتها في الفندق وقالت بأنهـا فرصة ذهبية لعفيف أن يجتمع مع الفلسطينيين ويعرف مواقفهم.. كان عفيف على كرسيه قبالة التلفزيون فغطيت السماعة وأخبرته بما تريد فأجاب قائلا "قولي لهـا أن لا تعـاود الإتصال بنا أو رؤيتنا أبدا"..

كان ذلك عام 75 وقد بدأت الحرب الطائفية في لبنان منذ مقتل معروف سعد نائـب صيدا الذي كان يكسب أصواته بتبني قضية الكادحين والفلسطينيين! ولم نر سينا موريـا مرة أخرى الا بعد سنين..